من هم اخوان الصفا؟

للأستاذ أديب عباسى

أصل التسمية — نشأة الجمعية — طبقاتها — تأثيرها — رأي الناس فيها — رسائل الاخوان اجمالا

قد أظهر كولدزهير ان « أخا الصفا » تعنى - حسب الاصطلاح العربى - ذلك الذى صفت نفسه وخلصت سريرته فحسب - كقولك : يا أخا المروءة ويا أخا العرب ، وهكذا لا تكون لعبارة « اخوان الصفا » أية دلالة أو نسبة إلى أخوية من الاخويات على نحو ما يفهم من الاخوية حسب الاصطلاح الحديث . على أن « دى فو » فى كتابه (Les pensurs de l'Islam) يتساءل هل لهذا الاسم علاقة بكلمة فيلسوف كما ترد فى اصطلاح الفيثاغوريين ويقول : ان كلمة « أخ » تقابل الشطر الأول من لفظ « الفلسفة » (فيلو) وكلمة « صفا » تقابل معنى ومبنى الشطر الثانى منها (صوفى) وعليه يكون معنى الاسم محبى الحكمة .

هذا عرض موجز لرأيين مختلفين فى أصل تسمية الاخوان هذا الاسم لمستشرقين غربيين . وثم رأى آخر لاخوان الصفا أنفسهم فى أصل هذه التسمية لانعتقد أن باحثا من الباحثين فطن اليه أو تنبه له ، فقد جاء فى الجزء الرابع من رسائل الاخوان (ص ٣٧٣) ما يأتى : —

« وانما سمينا رسالتنا هذه رسالة السحر ليستدل اخواننا على الأسرار الخفية وليكونوا اذا بلغوا معالى العلوم ذوى غنى عن الحاجة إلى من سواهم فى جميع ما يحتاجون اليه من أمر معيشة الدنيا . فاذا وصلوا إلى هذه المرتبة صح لنا أن نسميهم باخوان الصفا . واعلم يا أخى ان حقيقة هذا الاسم هى الخاصة الموجودة فى المستحقين له بالحقيقة لا على طريق المجاز » . ويقولون أيضا (ج ٤ : ص ٣٧٣ — ٧٤) : —

« واعلم يا أخى أنه لاسبيل إلى صفا النفس إلا بعد بلوغها إلى حد الطمأنينة فى الدين والدنيا جميعا . وهو أن يعرف الانسان بحسب قدرته توحيد الله جل جلاله . . . وبعد ذلك ما يكون به صلاح معيشة الدنيا والغناء فيها عن الحاجة إلى من عدم هذه الصناعة . ومن لا يكون كذلك فليس هو من أهل الصفا . لانه لو كان من أهل الله لما لكان بصفاته عمن دونه الغناء » .

لنا من جميع ما تقدم إن « إخوان الصفا » كما يعرفون أنفسهم - هم هؤلاء الذين حذقوا علوم الدين والدنيا معا واستغنوا بها عن الحاجة إلى من سواهم

وأخيرا نود ان نشير الى رأى أورده المستشرق كرلو نلينو فى كتابه « علم الفلك عند العرب فى القرون الوسطى » يفسر فيه معنى هذه التسمية بالرجوع الى عبارة وردت فى اول باب « الحمامة المطوقة » من كليلة ودمنة . على اننا لدى رجوعنا الى القطعة التى يشير اليها المؤلف فى رسائل الأخوان (أنظر الجزء الأول من الرسائل : ص ٥٣) لم يتبين لنا ان حادثة الحمامة المطوقة كما وردت فى كتاب كليلة ودمنة هى أصل التسمية . وذلك أن اخوان الصفا كعادتهم فى التمثيل لكل فكرة - قد أوردوا هذه القصة ليان فائدة التعاون حسب . بيد أنه قد يكون فى غير الموقع الذى يشير اليه المؤلف من الرسائل مايقوى هذا الرأى ، ولكن المؤلف لايشير الا الى ماتقدم

***

هذا وقد قامت جمعية اخوان الصفا حوالى سنة ٣٧٣ هـ ، وكان مركزها العام مدينة البصرة (١) وقد ذكر المؤرخون خمسة بالاسم

ولما رأى أمان الله تطور الحوادث على هذا النحو عاد فاسترد تازله ، وجمع فلوله وحاول السير إلى كابول ، ووقعت بينه وبين خصومه معارك عديدة انتهت بهزيمته ، فانسحب من الميدان أخيراً وفر مع زوجه وأسرته فى مايو سنة ١٩٢٩ عن طريق الهند ، ثم جاز إلى أوربا منفيا طريداً ، واستقر بروما ، يرقب بحرى الحوادث فى أفغانستان ، ونسمع صوته كلما اضطرمت أفغانستان بحادث جديد . وكان آخر العهد بتصريحاته فى أوائل نوفمبر الماضى ، حينما قتل المرحوم نادر شاه ، فقد صرح يومئذ لبعض الصحف الكبرى أنه لا يتأخر عن العودة إلى أفغانستان ، وتبوى العرش إذا دعاه الشعب الأفغانى ، ولكن الشعب الأفغانى لم يقم بمثل هذه الدعوة ، وقد تبوأ ظاهر شاه ولد الملك القتيل العرش غداة مقتل أبيه .

لما تسمية

محمد عبد الله عنان

(١) الغريب ان ابن تيمية ، دون باقى المؤرخين الذين وقفنا عليهم ، يذكر أن رسائل اخوان الصفا صنفت قريبا من بغداد القاهرة (بقية المرتاد ص ٥٩) فاذا صح هذا الزعم فانه يرجح ان يكون مركز هذه الجمعية القاهرة ، لا البصرة . وتكون جمعة البصرة فرعا منها .

من أعضاء هذه الجمعية وهم : ابو سليمان محمد بن مشعر البستي ويعرف (بالمقدسي) ، وابو الحسن على بن هارون الزنجاني وابو أحمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة .

وكانت جماعة الأخوان تتالف من اربع طبقات : الطبقة الأولى وتتالف من الاحداث الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثلاثين . ويفرض على افراد هذه الطبقة الطاعة التامة واسلاس القياد لرؤسائهم ومعلميهم . والطبقة الثانية تتراوح اعمار افرادها بين الثلاثين والاربعين . ويسمح لهؤلاء بالاطلاع على العلوم الدنيوية دون العلوم الدينية . ثم الطبقة الثالثة واعمار الداخليها تقع بين الاربعين والخمسين . وهؤلاء يسمح لهم بالاطلاع على شرائع العالم المقدسة ، أما الطبقة الرابعة فأعضاؤها يكونون ممن اربت سنهم على الخمسين . ويسمح لهم فى هذه الطبقة بالوقوف على سر الأشياء الصحيح والنفوذ الى لباب المسائل كما يتسنى ذلك للملائكة . غير انه ليس لدينا مايثبت ان اخوان الصفا راعوا هذه التقسمة مراعاة دقيقة ، فلم يسمحوا لهذه الطبقات ان يتداخل بعضها ببعض

وقد اوجب القائمون بانشاء هذه الجمعية ان يكون لأخوان الصفا ، حيث كانوا من البلاد مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة لايدخلهم فيه غيرهم ، يتذكرون فيه علومهم ويتحاورون اسرارهم ، كذلك اوجبوا ان تكون مذاكراتهم — على قدر مايستطيعون فى علم النفس والحاس والمحسوس والنظر فى الكتب الالهية والعلوم الرياضية وهى العدد والهندسة والتنجيم والتاليف (يقصد تأليف النسب الموسيقية)

وكانوا يحتاطون مامكنهم الاحتياط فى ختيار الأعضاء الجدد . فلم يكن يسمح لأحد بالدخول فى هذه الجمعية الا اذا كان ناصع الصحيفة لاغبار على أخلاقه ولاريبة فى سلوكه ، وكانت اجتماعاتهم تعقد سرا فى بيت رئيسهم زيد بن رفاعة .

أما غاية أخوان الصفا فيلخصها ابو حيان التوحيدى بقوله : —

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله . وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال »

هذا هو ظاهر الغرض من تأليف هذه الجمعية والدعاية لها ولكننا نعتقد ان وراء هذا الغرض اغراضا أخرى نحن مبينوها فيما بعد فى فصل خاص

أما تأثير هذه الجمعية فقد اقتصر بوجه عام على العامة وأشباه العامة . والظاهر أن أخوان الصفا لم يكونوا يطمعون فى أكثر من ذلك . وهم — لذلك — قد وضعوا رسائلهم بلغة بسيطة سهلة بعيدة عن الاعتياص والغموض اللذين يرافقان عادة الكتابات الفلسفية ، وبما توسلوا به لتقريب مذهبهم الى افهام الجمهور اكثارهم من ضرب الأمثال وسرد الحكايات . فمكان ذلك كله مقرونا الى بساطة التعبير وجلاء العبارة ، داعيا الى تهافت العامة على دراستها وان جاء ذلك بعد حين من تأليفها . أما الطبقات الراقية فلم تر فى هذه الرسائل مايروى الغلة أو يملأ الفراغ الذى كانت تحسه النفوس الى الفلسفة فى جميع فروعها آنئذ ، واليك ما يصفها به أحد المعاصرين وهو أبو سليمان المنطق قال : —

« وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والامثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة . وهى مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية . وفيها خرافات وتلفيقات ، فنسبوا ما أغنوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا فقلقلوا . وبالجملة فهى مقالات مشوقات غير مستقصاة ولاظاهرة الأدلة والاحتجاج »

(تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج ص : ٣٠٩)

ورأى الغزالى فى هذه الرسائل لايخرج عن معنى ماتقدم (١) فهو يقول : —

« . . . فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا الى أن نهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، وللزمنا أن نهجر كثيراً من آيات القرآن . . . لأن صاحب كتاب اخوان الصفا أوردها فى كتابه مستشهداً بها ومستدرجا قلوب الحق بواسطتها الى باطله (المنقذ من الضلال ص ٢٧)

من هنا لانرى مايراه (لان بول) من أن هذه الرسائل كانت تمثل الفلسفة العربية حين ألفت أصدق تمثيل ، فأن كتابا يكتب بلغة شبيهة بالعامية وللعامة ، ويصفه أبو سليمان المنطق والغزالى بما وصفاه ، لايمكن أن يكون ممثلا للفلسفة العربية فى ذلك العصر

ورسائل اخوان الصفا هذه تبلغ واحدة وخمسين رسالة عدا الرسالة الجامعة . والشك يحوم حول مؤلفيها . فمن قائل أنها من

(١) — يقول دى بور : ان الغزالى الذى كانت آيته التفكك فى كل شىء لم يحسن أن يقتبس من اخوان الصفا مايرى اقتباسه . فهو مدين لهم باكثر مما يود أن يعترف

تأليف جعفر الصادق ، ومن قائل أنها من كلام بعض متكلمي المعتزلة ، ولكن السائد اليوم هو أن كتابات زيد بن رفاعة كانت نواة هذه الرسائل . والأربعة الذين يذكرون معه كانوا يساعدونه في التأليف وانضاج الرأى . وقد كان لتأليف الرسائل على هذا النحو من التعاون أثر كبير في اسلوبها واختلاف قيم اجزائها ، فهي في مواطن قوية الفن غزيرة المادة ، وفي مواطن اخرى مهلهلة الأسلوب سطحية المباحث . وهذا التباين الملحوظ في مراد هذه الرسائل يثبت لنا ان مؤلفيها كانوا على تفاوت في ثقافتهم

على أن من هذه الرسائل ما انفرد بكتابته شخص واحد من هذه الجماعة دون غيره . ومن هذه الرسائل رسالة الحيوان . فاطراد الافكار وتسلسل المعاني ، ووحدة السياق التي تلحظ في هذه الرسالة يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنها لكاتب فذ منهم . وهذه الرسالة في رأينا — هي أقوى هذه الرسائل واعلاها نفسا وأسدها منطقا ، وقد عرضت هذا الرأى على الأب انسطاس الكرملي منذ سنوات فجاءني منه جوابها مايلي :—

« رسالة الحيوان هي — كما تقول — لكاتب واحد منهم اقواهم عبارة واصفاهم فكرا واحسنهم منطقا . لكن الظاهر ان بعض الأخوان نظروا فيها واحكموا تنسيقها ، واظهروا فيها حذقهم ، وحضرة الأب — على ما أفهمني — يدرس رسائل أخوان الصفا منذ سنة ١٩١٧

ولعل الغرض الخاص الذي ألفت من أجله هذه الرسالة كان انتقاد المجتمع اذ ذاك على لسان الحيوان كما فعل بعض أدباء الغرب في عصور التضييق على الحريات الفكرية . فأخوان الصفا في هذه الرسالة ينطقون الحيوان بما لا يستطيعون الجهر به من عبارات كلها تقريع للحكام ورجال الدين والقضاء في ذلك العصر (انظر ص ١٥٤-٥٥، ٢٣٣ - ٣٤)

أما المصادر التي استقى منها إخوان الصفا فهي عديدة ومتنوعة ، وذلك انه لم يكن يمنعهم عن النقل من أي مذهب أو دين أو فلسفة مانع ، كانوا يرون أن في كل مذهب أو دين أو فلسفة قسطا من الحقيقة ؛ وإذن ليس ثمة مانع من الانتفاع به أقصى ما يمكن الانتفاع . وعلى هذا المبدأ يبني فلسفتهم الانتخابية . ففي هذه الرسائل من الافلاطونية الحديثة ، وفيها من الفيثاغورثية ، وفيها من مذهب وحدة الكون (الباتيزم) وفيها من أفلاطون وأرسطو ، وفيها من الديانات الهندية والزردشتية واليهودية والمسيحية .

شرق الاردن — أديب عباسي

حجاج الخضرى

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

قد تكلم المتكلمون في وصف أهل مصر فأكثروا في وصفهم من المبالغات ، وذهبوا في التعميم مذاهب مختلفة . فنهم من أغرق في المدح حتى لم يترك فضيلة الا وصفهم بها ، وهؤلاء قد غاب عنهم من وجه الحق مثل ما غاب عن الفريق الآخر الذي أغرق في الذم والتجريح . وقد تناول أفاضل كتاب الرسالة هذا المعنى فضربوا فيه بسهم

ولعمري أنه لم يخطىء كاتب خطأ كتاب العربية قديما اذا هم تناولوا قوماً بالوصف ، فانهم إذا وقعت أنظارهم على جماعة أو عاشروا فئة من الناس وصفوها وصفا يخيل إلى من يسمعه أو يقرؤه أنه وصف شامل لكل أهل البلد ، أو أنه سمة ثابتة لكل الجنس ، في حين أنهم انما كانوا يصفون من اتفق لهم الامتزاج به أو من ألقتهم الظروف في سبيلهم .

إن العالم الذي يحاول وصف الشعوب إنما يصل إلى حكمه على مميزات الشعب بعد أن يدقق في بحثه ويفحص من أفراد الجنس عدداً يستطيع بعد فحصه أن يقول بحق إنه قد عرف نسبة محترمة من أفراد ذلك الجنس ، فاذا ما قال إنه رأى في ذلك الجنس صفة لازمة يشترك فيها الافراد جميعاً أو أغلبهم كان ذلك الحكم جديراً بالوثوق والتصديق . وشعب مصر إذا ذكره الذاكرون انما يعني به شعب تلك الأرض الممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وليس من السهل على أحد أن يصف مثل ذلك الشعب بوصف شامل يعم أفراده جميعا ، أو يصدق على أغلبهم . فأمثال ابن خلدون والمقريزي ممن وصفوا أهل مصر إنما يصفون من رأوه من أهل الدولة أو من الأعيان أو من أهل العلم ، وهؤلاء ان صدقت عليهم كلمة أو شملهم وصف لم يصح أن يكون وصفهم وصفا للأمة جميعها . بل إن وصفهم لا يصح أن يكون وصفا لبعض الأمة فضلا عن كلها . وذلك لان أغلب أهل هذه الطبقة في مصر لم يكن في تلك العصور من جرثومة البلاد وأبناء شعبها الصميمين ، بل كانوا أخلاطا من مشرق الارض